مجلة التاريخ المتوسطي. المجلد 06، العدد 02. شهر ديسمبر 2024. ص. 441 – 457
P-ISSN: 2716-764X, E-ISSN: 2716-7747

ت. الإرسال: 03 – 09 – 2024	ت. القبول: 04 – 10 - 2024	ت. النشر: 30 – 12 - 2024

الدور السياسي والعسكري للأرناؤوط في الإيّالات المغاربية خلال العهد العثماني: دراسة نماذج

The political and military role of Arnaout in the Maghreb provinces during the Ottoman era: Study models

عطية محمد

جامعة عمار ثليجي - الأغواط

med.attia@lagh-univ.dz

الملخص:

يهدف هذا البحث إلى توضيح دور الألبانيين الذين وفدوا إلى الإيّالات العثمانية المغاربية؛ عن طريق عمليات التجنيد التي اعتمدتها الدولة العثمانية لحماية حدودها وممتلكاتها. و الألبانيون هم الذين يطلق عليهم اسم الأرناؤوط. ولم يقتصر وجودهم على بلاد الشام ومصر إذْ كانوا فيها بأعداد كبيرة بل تعدى وجودهم إلى المغارب، وفي وقت مبكر من إلحاق البلاد المغاربية بالسلطة العثمانية. وكانوا قد تقلدوا مناصب عديدة وهامة، فمنهم من كان حاكما على الإيّالة، ومنهم من كان أميرا لبحريتها. وقد أبانوا عن مهارة كبيرة وخبرة عميقة أهلتهم إلى اكتساب أسلوب مميز لتسيير المناصب التي كلفوا بها. هذا وقد اعتمدنا على المنهج التاريخي التحليلي اذ حللنا أسباب وجود هذا العنصر في المغارب والظروف التي ساعدتهم في الظهور على مسرح الأحداث. كما اتبعنا المنهج التاريخي المقارن بعض الشيء عندما قارنا بين شخصية و أخرى.

وخلصنا في الأخير أن كانت مشاركة هؤلاء في معترك الحياة السياسية والعسكرية في هذا الجزء القصي من الولايات العثمانية نقطة هامة، في تحول اهتمام السلاطين والوزراء - نظرا للنجاحات التي حققوها- في تكليف العديد من الأرناؤوط وحتى الأعلاج في تولي مناصب عليا في الدولة العثمانية منها منصب الصدر الأعظم، وقيادة الأسطول الهمايوني. ولم يبخل الأرناؤوط أو يدخروا جهدا في نقل تجاربهم إلى أولئك الذين عملوا معهم سواء كانوا ملكا لهم أو كانوا تحت إمرتهم.

الكلمات المفتاحية: الأرناؤوط ،الجزائر، طرابلس الغرب، تونس.

Abstract

This research aims to clarify role of Albanians, also known as “Arnaouts”, in the Ottoman provinces of the Maghreb. Recruited by the Ottoman Empire to secure its borders and territories, their presence extended beyond the traditional regions of the Levant and Egypt, reaching the Maghreb soon after its annexation. Notably, Albanians held key positions, including provincial governors and naval commanders. Their expertise and extensive experience allowed them to develop a unique and effective leadership style, contributing significantly to their success in these roles. We relied on the historical and analytical methods to analyse the reasons for the presence of these elements in the Maghreb and the circumstances that contributed to their emergence in the region. We also followed a comparative historical approach to compare the characters.

We concluded that participation in the field of political and military life in this remote part of the Ottoman provinces played an important role in shifting the interest of the sultans and ministers. This shift, driven by the successes achieved, led to the appointment of many Arnaout and even Christians who converted to Islam to high positions within the Ottoman Empire, including roles such as prime minister and commander of the Hamayouni fleet. The Arnaout spared no effort in sharing their experiences with those they worked with, whether they were fellow Albanians or individuals under their command.

Key words: Arnaout, Algeria, Tripoli of the West, Tunisia.

المؤلف المرسل: محمد عطية، الإيميل: med.attia@lagh-univ.dz

مقدمة :

ظلت العلاقات المغاربية- العثمانية منذ نشأتها أوائل القرن السادس عشر تتسم بالتبعية والتعاون المشترك؛ للحد من الاعتداءات الأوربية المتوالية على سواحل شمال إفريقيا. وكانت الدولة العثمانية تسهر على حماية حدودها كما كانت غاية حكام الايالات كذلك. لذا سخرت أعدادا كبيرة من الجند للخدمة العسكرية في هذه البلاد. وكانت ترسل منهم حسب الحاجة والظروف التي تمر بها. وبقيت حريصة على بقاء الجيش من العناصر العثمانية دون غيرها عدا أولئك الأسرى المسيحيين الذين تم أسرهم في عرض البحر. وتركيبة هذا الجيش لم تقتصر على العنصر التركي فحسب، بل تعدت إلى عناصر أخرى جُندت من البلاد التي تم فتحها في شرقي أوربا، والتي من بينها عنصر الأرناؤوط نسبة لبلاد ألبانيا.

وإذا كانت الدولة العثمانية قد شهدت أزهى عصورها في المغارب خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر وطيلة القرن السابع عشر، فإنّ الأرناؤوط قد ظهروا في ذات الفترة على أنّ عددهم لم يكن كثيرا. لذا حاولنا في بحثنا هذا اختيار شخصية مهمة عن كل إيّالة من الإيّالات المغاربية(الجزائر، تونس، طرابلس الغرب). وانطلاقا مما سبق سنحاول إثارة الإشكالية التالية: ما هي العوامل التي ساعدت على بروز عنصر الأرناؤوط؟ إلى أي مدى ساهم عنصر الأرناؤوط في الحياة السياسية والعسكرية بالإيّالات المغاربية؟ وما هي أبرز المناصب التي شغلوها؟ وللإجابة على الإشكالية سنحاول إتباع المنهج التاريخي الوصفي وذلك بتتبع مراحل حياة هؤلاء. كما سنتبع المنهج التاريخي التحليلي بغية الوصول إلى نتائج تهم الباحثين في التاريخ والمهتمين به أيضا.

1- أصل تسمية الأرناؤوط:

مع تأسيس دولة المماليك(1250-1517م)؛ واعتلاء السلاطين الذين كانوا في الأصل عبيدا من العناصر التركية والشركسية في مصر وبلاد الشام أمثال "خشقدم" و"تمربغا" في أواسط القرن الخامس عشر ميلادي، حيث كانوا عبيدا تم شراؤهم من أسواق النخاسة في موانئ البحر الأدرياتيكي ولم تكن هناك قوانين ولا حتى أعراف تمنع بيع هذا الجنس لاعتبارات متعددة. ومهما يكن من أمر هذه المعتقدات، فقد ظهرت تسمية الأرناؤوط على لسان مؤرخ ذلك العصر "ابن تغري بردي" صاحب كتاب النجوم الزاهرة. عندما أطلق هذه التسمية على هذه الفئة التي جُلبت من مناطق ألبانيا المسماة في تلك الفترة ببلاد الروم. فكانت الأسماء التي تُطلق على هؤلاء العبيد إما تركية أو عربية أو حتى فارسية، تمييزا لها عن غيرها من الأسماء من طرف من يشترونهم. وعليه كان ابن تغري بردي أول من أطلق في اللغة العربية اسم الأرناؤوط على العبيد الذين بيعوا في موانئ بلاد الشام ومصر (الأرناؤوطي، 2018: 10- 12)

يقول أحد العارفين أنّ "ابن تغري"؛ كان قد استمد الاسم من اللفظة العثمانية "أرنود" التي كانت تطلق من طرف الأتراك على الشعب الذي يقطن بلاد الروم؛ شرقي البحر الأدرياتيكي (الأرناؤوطي، 2018: 13- 14)، ويشير أحدهم إلى أنّها مأخوذة من اللفظة اليونانية " أرفانيت" (Arvanit)، وقد شاع استعمال الاسم بعدها في جل المؤلفات التي كتبت بعد كتاب النجوم الزاهرة (الأرناؤوطي، 2018: 13- 14).

2- توسع الدولة العثمانية وبداية ظهور الأرناؤوط:

رسم "عثمان خان"(1299- 1324م)؛ سياسة دولته التوسعية من البداية، عندما كوّن جيشا خاصا به، وكان قد استوحى ذلك من التنظيمات الماغولية والسلجوقية. بيد أنّ تلك التنظيمات العسكرية القبلية التي كانت تقليدية بلا شك؛ لم تكن تتماشى وتطورات ذلك العصر، لذا كان لابد من إيجاد طرق أخرى أكثر نفعا وفاعلية بغية تشكيل جيش قوي يجابه جيوش الأعداء (ايرينا، 2006: 9- 23). وكان التجنيد قد اقتصر في البداية على أبناء القبائل؛ بيد أنّه مع مرور الزمن تم تجنيد أبناء المناطق التي تم فتحها من الشباب واليافعين المسيحيين؛ الذين اعتنقوا الإسلام كشرط للانضمام إلى هذا التنظيم العسكري. هذا وقد تطورت عملية التجنيد في القرن الخامس عشر إذْ أصبحت تقتضي تسليم أولئك المسيحيين للأتراك من أجل تربيتهم وذلك بتعليمهم أبجديات اللغة العثمانية وتعاليم الدين الإسلامي السمحة (عمريوي، 2008: 33- 34)

لقد بدا أمر تأسيس جيش متحرر من سطوة الأعراف القبلية- التي تقضي بحله زمن الاستقرار واستدعائه زمن الحروب- لأمر في غاية الأهمية ذلك أنّ هذا الجيش لن يعترف إلا بإمرة السلطان نفسه ولن يكون له عمل سوى الجهاد في سبيل الله (جبري، 2019: 135- 136). وهكذا تم تأسيس جيش نظامي ذو عقيدة عسكرية راسخة.

وكان من جملة فتوحات هذا الجيش أثناء حكم السلطان محمد الأول(1413-1421م) فتح بلاد ألبانيا، استجابة لرأي وزرائه وكبار مساعديه، لما لها من أهمية إستراتيجية للدولة الناشئة (خوجة، 2014: 181)، وعندما جلس السلطان مراد الثاني على كرسي السلطنة سنة 1446م، رتب أمور البلاد وفتح بعض المناطق والتي من بينها قلعة آقجه حصار(آكتشا هسار) (خوجة، 2014: 380-381)، وكانت زمنئذ بمثابة عاصمة لألبانيا وهي إذْ ذاك تحت حكم "اسكندر بك"[1] (بك حليم، 1988: 61).

وبالمقابل إلتفت هذا السلطان إلى تنظيم شؤون دولته، فأمر قادة الجيش بمباشرة عمليات أسر كل من وقع في أيديهم من سكان تلك المناطق، الذين حملوا السلاح ضدهم. وما له صلة بالموضوع أنّه أسر المئات من الغلمان تمهيدا لتجنيدهم بعد تربيتهم تربية إسلامية (مانتران، 1993: 198). انطلاقا من هذه الحملة على بلاد الأرناؤوط بدأ تجنيد هذا العنصر في الجيش الانكشاري العثماني، بل وأصبح عنصرا أساسيا في عمليات التجنيد خلال هذه الفترة، فالكثير منهم صار قائدا للجيش بل وحتى حاكما لإحدى مقاطعات الدولة لاسيما في بلاد الشام ومصر في القرن الخامس عشر والسادس عشر، ليتم إيفاد هذا العنصر كحكام للإيالات المغاربية بشمال إفريقيا. إذْ كان لهم دور بارز في مختلف مناحي الحياة ولاسيما منها السياسية والعسكرية. ويشار هنا إلى أنّ ألبانيا التي دخلت في حكم العثمانيين سوف يعتنق سكانها الإسلام كما فعلت قبلهم شعوب البوسنة والهرسك و أجزاء من رومانيا، وهذا مع احتفاظهم بلغتهم الأصلية (مانتران، 1993: 198).

[1] عاش خلال القرن الخامس عشر ميلادي؛ وكان متحمسا لظهور العثمانيين على مسرح الاحداث في انحاء البانيا، غير أنه لم يلبث كذلك فسرعان ما انقلب عليهم وقاد ثورة عظيمة ضدهم انتهت بفشله و ضم ألبانيا للسلطة العثمانية ينظر☹ خوجة، 2014: 371)

ولكي يتسنى معرفة هؤلاء المجندين الجدد من قبل المكلفين بالتجنيد أو المستقبلين لهم في الإيالات المغاربية كان لابد من إرفاق اسم الأرناؤوطي لهؤلاء تميزا لهم عن بقية المجندين. الأمر الذي يبين حرص العثمانيين على أدق تفاصيل عمليات التجنيد، ففي الجزائر على سبيل المثال لا الحصر نجد إرفاق اسم المنطقة التي أتى منها المجند إلى اسمه مثل إبراهيم قرة باغلي، نسبة لمدينة قرة باغ. والأرناؤوط واحد من تلك الأمثلة (حماش، 2003: 44).

3- نماذج من الأرناؤوط في الإيّالات المغاربية:

سنركز في فحوى هذا البحث على ثلاث شخصيات تنتمي لهذه الفئة على أنْ تكون شخصية واحدة من كل إيالة مغاربية وسنبدأ بإيالة تونس العثمانية حسب الترتيب الزمني لظهورها:

1.3- سنان باشا:

1.1.3- مولده و نشأته:

تروي لنا المصادر التي تعرضت لحياة سنان باشا أنّه من أصل ألباني، تم أسره من قبل العثمانيين، كما اعتنق الإسلام منذ نعومة أظافره، وقد لقب بالخوجة التي تعني الكبير (خوجة، 2014: 275). ويرجح أنّه ولد في مطلع القرن السادس عشر. و كان مثله مثل أترابه في ذلك الزمن إذْ قُدم للسلطان العثماني في إطار ضريبة الغلمان، هذه الضريبة التي كانت مفروضة على الولايات العثمانية شرقي المتوسط. وتم تجنيده حيث أصبح من عمال القصر ولم يلبث حتى أصبح من كبار خدام القصر في عهد السلطان سليمان القانوني(1520- 1566م) (خوجة، 2014: 275)، وكنتيجة لإخلاصه في عمله ارتقى في سلم الرتب الإدارية حتى أصبح واليا على جزء هام من منطقة الشام. ولما كانت هيمنة الصليبيين - الإيطاليين خاصة- على طريق التجارة البحرية عبر المتوسط (بروديل 1993: 113- 116).

رأى السلطان سليمان تكليفه على رأس أسطول بحري لتحرير جزيرة صقلية، ولم تكلل مهمة سنان باشا بالنجاح لذا نجده قد توجه إلى مدينة طرابلس الغرب التي خلصها من الاحتلال الإسباني و سطوة فرسان القديس يوحنا .

ولما تولى السلطان سليم الثاني(1566- 1574م)، قَرَّبَ إليه سنان باشا وأضحى لديه مكانة خاصة؛ إذْ كان من أهم القادة الذين اعتمد عليهم في مهماته، و قد عينه في سنة 1568م، واليا على مصر وكُلف بقيادة الحملة التي توجهت لتحرير اليمن من الاحتلال البرتغالي، و عاد إلى حكم مصر بعد سنة 1574م.

يُذكر أنّه تولى منصب الوزارة العظمى خمس مرات، الأمر الذي يدل على مكانته لدى السلاطين العثمانيين، ولولا دسائسه التي كان يحيكها ضد خصومه لبقي في منصبه دون إزعاج، كما وُصف الرجل بالغرور والأنانية أيضا (خوجة، 2014: 275).

2.1.3- جهوده في تحرير تونس1574م:

كان سنان باشا من أولئك القادة الأوائل الذين اهتموا بأمر الاحتلال الإسباني لسواحل شمالي إفريقيا، إذْ يعود له الفضل في تحرير طرابلس الغرب رفقة الريس درغوث قبل نحو عشرين عاما. أمّا

بالنسبة لتونس فقد أشغلته المهام التي كُلف بها؛ والتي من بينها ولاية مصر وقيادة الحملة التي حررت اليمن كما أسلفنا. فخلال المحاولة الأولى لتحرير تونس سنة 1569م، كانت الظروف أكثر ملائمة بعد نصف عقد من الزمن لتحرير تونس نهائيا ولعل أهم حدث للقيام بهذه الخطوة كان انشغال إسبانيا بإخماد ثورة البشارات الكبرى ما بين سنتي 1568-1570م بالأندلس. بيد أنّ أمر التحرير الأول لم يتم كما أراد العثمانيون ذلك أنّ التحصينات التي بقيت فيها الحاميات الإسبانية منها قلعة حلق الوادي، كانت سببا رئيسيا في عدم تحقيق نصر شامل. وانطلاقا من هذه التجربة سيركز العثمانيون وعلى رأسهم سنان باشا جهودهم للقضاء على تلك المقيميات الاسبانية(prisidios)[2]، قضاءً مبرما (الجبوري، 2011: 368).

كُلف سنان باشا من طرف السلطان العثماني سليم الثاني(1566- 1574م)، برفقة العلج علي قائد الأسطول الهمايوني زمنئذ، وكان سنان باشا منذ مدة يشغل منصب والي مصر وهو في هذه الفترة كان وزيرا للسلطان. وهذا من أجل إعداد حملة عسكرية بحرية والتوجه بها صوب تونس. كما التحقت بها في الوقت نفسه أساطيل وقوات طرابلس الغرب بقيادة حيدر باشا والجزائر بقيادة عرب أحمد حيث رسّت قبالة قلعة حلق الوادي. واستنفرت القوات البرية إذْ لبت نداء السلطان العثماني لتحرير البلاد مثل القوات التي أتت من القيروان وبنزرت (قاسم 2004: 64- 65).

ولم يتوان الجزائريون هم كذلك في تدعيم صفوف الحملة حيث شاركت قوات مهمة من بايليك الشرق، ومن مدن جزائرية أخرى في غضون شهر جويلية من سنة 1574م (مروش، 2009: 159- 160). عندما وقف العلج علي على مشارف قلعة حلق الوادي الحصينة التي استغرق بناؤها ثلاثة وأربعين سنة لذا بلغت من المنعة مبلغا عظيما، ضرب حولها حصارا شديدا بقي لمدة ثلاث وأربعين يوما. كما يروي لنا القيرواني (القيرواني، المؤنس، 1286هـ: 183). وقد بذل سنان باشا جهدا كبيرا في افتكاك القلعة حيث عمل كواحد من الجند؛ ولم يبق بعيدا عن مجريات الحصار يأمر ويتفقد؛ فكان ينقل التراب والحجر لردم الخنادق الموجودة حول القلعة من أجل العبور وتثبيت المدفعية لقصفها (زيد، 2012: 168). وكان قد أثار شفقة أحد الجنود إذْ قال له:«...ما هذا أيها الوزير! نحن إلى رأيك أحوج من جسمك، فأجابه الوزير سنان باش قائلا: لا تحرمني من هذا الثواب.». (ابن أبي الضياف، 2004: 20-21). استطاع سنان باشا القضاء على الاحتلال الإسباني بتونس بعد أنْ دكّ حصون قلعة حلق الوادي وحرر جزيرة شكلي ببحيرة تونس الحاضرة، وكان ذلك يوم 13 سبتمبر 1574م أبلى فيها العثمانيون بلاءً حسنا، في حين تم القضاء على أعداد كبيرة من جنود الحامية الإسبانية، هذا وقد أُسرت أعداد أخرى كان على رأسها قائد القلعة نفسه (مروش، 2009: 139). وطُردت القوات المحتلة المتمركزة في الباستيون، ولما تيقن الإسبان من انتصار العثمانيين غادروا البلاد وكان بصحبتهم وفي حمايتهم آخر الأمراء الحفصيين أبو عبد الله محمد بن الحسن وهو الذي لم يمر على إمرته للبلاد إلا عاما واحدا (مروش، 2009: 159-160). اجتهد الوزير العثماني في وضع الترتيبات الأولى لإدارة أمور الصنجق الجديد؛ الذي كان يُدار من الجزائر ابتداءً من هذه السنة إلى غاية نهاية حكم البايلربايات سنة 1587م. ومن بين الأعمال التي قام بها هي تنصيب

[2] أطلق سعد الله أبو القاسم على القلعة الاسبانية الواقعة قبالة مدينة الجزائر اسم المقيمية الاسبانية، وهي المكان الذي يقيم فيه الجنود للمحافظة على الأماكن التي يحتلونها، مثل القلاع الموجودة في مرسى حلق الوادي وغار الملح بتونس، وغيرها.(وولف، 2008: 40-41).

رمضان باي عليها وترك له حامية عسكرية كما يروي لنا ابن أبي الضياف:".. وأبقى دارا من الينجرية عددها أربعة آلاف مقاتل، أكثرهم اختار المقام بالحاضرة التي أنقذوها بأرواحهم...وجعل على كل مائة منهم أميرا يسمى الداي...وجعل أمير لواء لضبط الأوطان بالمملكة واستخلاص جبايتها يسمى الباي...مرادف للأمير وهو رمضان بن حسين التركي من جند الجزائر ويكون علي باشا قد أبقاه (ابن أبي الضياف، 2004: 26-27).

ونستشف من خلال هذا أنّ سنان باشا بقي ردحا من الزمن يُسيِر أمور البلاد وينظمها، نظرا لما تتطلبه عمليات الإلحاق لضمان الأمن و الاستقرار، ذلك أنّ أول باشا حكم تونس هو "حيدر باشا"، وابن أبي الضياف يخبرنا بأنّه نصب رمضان باشا، وهذا الأخير كان قد حكم بعد حيدر لفترة يسيرة.

وهكذا تم للعثمانيين تحرير تونس من الاحتلال الإسباني؛ كما تم إنهاء حكم الدولة الحفصية، التي حكمت البلاد لأكثر من ثلاثة قرون من الزمن. ويذكر في هذا الصدد أنّ الأمير الحفصي غادر البلاد رفقة الإسبان كما تقدم، ولم يكن ليبقى دون التفكير في استرجاع ملكه، وكعادته استنجد بهم وحث الحفصيين ممن هم بجزيرة مالطا لتوجيه حملة ضد العثمانيين بالبلاد، ولم يوفق في مسعاه وحاول عبثا ذلك في مرات أخرى ، قرابة عقد من الزمن حتى يئس (التر، 1989: 289)، وبذلك ستتوقف عمليات التحرير بعد سيطرة العثمانيين على البحر الأبيض المتوسط شرقه وغربه، ودحر القوى التي كانت تنافسها على هذا المجال الهام مثل الإسبان والبنادقة لتبقى مدينة وهران والمرسى الكبير رهينتين لدى الاحتلال الاسباني إلى حين. كما سينتقل سنان باشا إلى الأستانة، ولم يُذكر له شأن بعد ذلك في إيّالة تونس.

2.3- مامي أرناؤوط:

ترك هذا البحار بالغ الأثر في تاريخ البحرية الجزائرية مع بداية الربع الأخير من القرن السادس عشر، ولكن قليلة جدا هي المعلومات حوله، ذلك أنّ المؤلفات التي تطرقت لطائفة رياس البحر بخصوص نشأتها وسيرتها لم تترجم حياة الكثير من أبطالها؛ عدا تلك الشخصيات البارزة التي ساهمت بقسط وافر في صنع أحداث ذلك الزمن. وكل ما هو متوفر تلك الأسطر التي تخللت كتاب الإسباني "ديقو دوهايدو"، ملوك الجزائر، أو شذرات في مؤلفات أخرى لا نغالي إنْ قلنا بأنّها تُعد على أصابع اليد الواحدة.

1.2.3-المولد و النشأة:

تفيد المعلومات حول مامي أرناؤوط بأنّه ألباني المولد والنشأة معا (دوهايدو، 2013: 182). و يخبرنا مؤلف آخر بأنّه ألباني الأصل، اعتنق الإسلام في سن مبكرة؛ إذْ كان من ضمن أفراد ضريبة الغلمان التي تُقدم للسلطان العثماني. مثله مثل سنان باشا كما أشرنا إلى ذلك سابقا (مروش، 2009: 213)،لذا نجده قد كبُرَ في أعين العثمانيين، وعظمت مكانته كما حظي بثقتهم، الأمر الذي أدى إلى سرعة تدرجه في الرتب العسكرية، عندما وُجه للعمل البحري على متن السفن العثمانية في عرض البحر الأبيض المتوسط (دوهايدو، 2013: 219)، ومما ساعد أيضا هذا البحار الشاب بأنّه كان مِلْكًا للعلج علي(1568-1572م)[3]،

[3] حكم العلج علي الجزائر مابين سنتي1568-1572م ولكنه بقي في منصب بايلرباي الجزائر حتى تاريخ وفاته سنة 1587م. بيد انه كان هناك من ينوب عنه في المنصب عندما استدعي لقيادة الأسطول العثماني(سي يوسف، 2009: 210-211).

ليصبح بعد حين من كبار مساعديه؛ بعد أنْ أظهر نشاطا قل مثيله لدى أقرانه من البحارة. هذا وقد أهلته نباهته وفطنته أثناء معركة ليبانت[4](اينه بختى)، سنة 1571م، ليصبح محل اهتمام سيده بالدرجة الأولى. كما ظهر كعنصر فعال لأحداث الثورة التي وقعت في مدينة الجزائر ضد قائد البحرية الجزائرية أعراب أحمد، عندما رفع السكان طلبهم للسلطان العثماني شاكين أمر هذا الأخير، ومطالبين إياه بإعادة رمضان باشا لحكم الجزائر (دوهايدو، 2013: 182).

2.2.3- مامي أرناؤوط أميرالا للأسطول الجزائري:

شغل مامي أرناؤوط منصب قائد البحرية الجزائرية، بدليل العديد من التقارير، في ظل وجود تضارب كبير حول المناصب التي شغلها في الجزائر زمن قيادة مراد رايس للبحرية هو الآخر. ومما لاشك فيه أنّه عُين في ذات المنصب في سنة 1573م، من طرف أمير أمراء جزائر الغرب المحروسة أعراب أحمد(1572-1574م)، وكان الريس مراد نائبا له (مروش، 2009: 212)

وسرعان ما دب الخلاف بين حاكم الجزائر(أعراب أحمد) وقائد البحرية مما أدى إلى عزله عن منصبه في آخر الأمر، وعُين بدله الريس مراد، في السنة ذاتها. ويُذكر في الأسباب المفضية لذلك أنّه كانت هناك شكوى تقدم بها الفرنسيون من خلال مبعوث الملك الفرنسي "شارل التاسع"(1560-1574م)، والتي تخص إطلاق أسرى فرنسيين كان مامي ورفاقه قد رفضوا إطلاقهم، وامتنعوا عن طاعة أوامر أعراب أحمد بحجة التدخل في شؤونهم ومحاباة الفرنسيين. و لم يلبث مامي كذلك إذْ أعاد الباب العالي تعيينه من جديد بعد عزل أعراب أحمد سنة1574م، نتيجة لشكوى الفرنسيين أيضا. وفي ظل غياب الريس رمضان في غزواته البحرية استخلفه مامي أرناؤوط على رأس إيالة الجزائر؛ لفترة قصيرة من الزمن ريثما يُعين باي جديد وعندما رجع رمضان من غزواته البحرية تقلد حكم الجزائر ابتداءً من سنة 1574حتى 1577م (مروش، 2009: 276).

ونلاحظ هنا أنّ المصادر أحجمت عن ذكر ذلك الفراغ السياسي الذي حدث بعد تنحية أعراب أحمد إذْ أصبح مامي أرناؤوط هو سيد البلاد الأول، كما سيحدث الأمر نفسه فيما بعد، عند شغور منصب الباشا نتيجة الثورة التي قادها مامي أرناؤوط ضد رمضان باشا في فترة حكمه الثانية، إذْ حكم لفترة قصيرة في غضون سنة1582م، وعندما عاد حسن فنزيانو من غزواته استلم الحكم في مطلع سنة 1583م (بوعزيز، 2009: 129).

بقي مامي أرناؤوط في منصبه كقائد للبحرية الجزائرية طيلة عشرين عاما؛ ابتداءً من سنة 1573م حتى سنة 1594م. وهناك من يقول بأنّه غادر الجزائر سنة 1590م. وإذا كان الريس مراد قد عُين قائد للبحرية الجزائرية في سنة 1595 فلا بد أنّ مامي قد بقي حتى السنة التي قبلها إذْ لم نعثر على من خلفه إذا سلمنا بمغادرته للجزائر نهائيا سنة 1590م (مروش، 2009: 212).

[4] من أهم المعارك البحرية التي وقعت خلال العصر الحديث بين الدولة العثمانية والدول الأوربية، وكانت لصالح هذه الأخيرة غير أنها لم تستغل هذا الانتصار بسبب اختلاف مصالحها. أما بالنسبة للدولة العثمانية فقد استطاع سلاطينها تجاوز هذا الانكسار وحرروا تونس من قبضة الاسبان بعد ثلاث سنوات من حدوث المعركة.(خوجة، 2014: 278)

3.2.3- أهم أعمال مامي أرناؤوط:

يُعد سجل هذا البحار سجلا حافلا بالبطولات التي خلدها التاريخ خلال القرن السادس عشر، ذلك أنّه لم يركن إلى الراحة ولا للسكينة؛ وكان شُغله الشاغل هو الذود عن حمى إيّالة الجزائر طيلة الفترة التي قضاها على رأس البحرية الجزائرية ومن أشهر نشاطاته البحرية نذكر ما يلي:

أ-المشاركة في معركة ليبانت1571م:

لم تُذكر مشاركة الريس مامي أرناؤوط بصريح العبارة في مجريات معركة ليبانت التي دارت وقائعها يوم السابع من أكتوبر سنة 1571م، ومما لاشك فيه أنّه كان بجانب العلج علي الذي كان يقود جزءًا هاما من الأسطول الجزائري، والمتكون من 30 سفينة و 30 أخرى كانت تشكل أسطوله الخاص. غير أننا لم نعثر على تاريخ محدد لالتحاقه بالأسطول الهمايوني، ذلك أنّ هذا الأخير كان يجوب أعالي البحار في هذه النواحي منذ شهر جوان، الأمر الذي ساهم في تعب وعياء جنود الجيش العثماني مع قرب نفاذ المؤونة وتلبد سحب التوتر بين العثمانيين والصليبيين (التميمي، 1983: 99).

ودون ذكر لتفاصيل المعركة فإنّ الحركة التي قام بها الأسطول الصليبي كانت خطيرة للغاية، إذْ جعلت الأسطول العثماني بين فكي كماشة. عندما قرر قادته نشر سفنه على شكل قوس مفتوح تكاد تلامس أطرافه سواحل خليج ليبانت، مما جعله في مرمى نيران مدفعية العدو. ولعله الأمر نفسه الذي كبده خسائر فادحة وكاد أنْ يفنيه، لولا شجاعة العلج علي وصمود بحارته، عندما دافع عن الأسطول دفاعا مستميتا، واستطاع بحركة مناورة سريعة الخروج من مرمى نيران التحالف ولكن ليس قبل أنْ يمزق الأسطول البندقي ويفنى الأسطول المالطي عن آخره، كما أسر 15 سفينة مسيحية (خوجة، 2014: 278).

وتمكن أيضا من الاستيلاء على الراية الخاصة بفرسان القديس يوحنا (وولف، 2009: 90). وإذا كان العلج علي قد تيسر له الأمر في الانتصار الجزئي؛ فلا بد من أنّ بحارته وعلى رأسهم مامي أرناؤوط قد أخذوا عبرة وتجربة كبيرة في هذه المعركة البحرية، ذلك أنّه بداية من هذه الواقعة سيعتمد عليه العلج علي في مهامه بصفة أكبر وسيكون هو من يخلفه على رأس البحرية الجزائرية، عندما يُكلف بقيادة الأسطول الهمايوني مقابل كفاءته في هذه المعركة بداية من سنة 1572م، كما تم تغيير اسمه من العلج (أولوج) إلى قليج التي تعني السيف (خوجة، 2014: 279). وهنا يبرز دور العلج علي عندما كان حكمه للجزائر بصفة مباشرة في نهايته رأى في مامي أرناؤوط الرجل المناسب ليخلفه على رأس البحرية الجزائرية كما أسلفنا (دوهايدو، 2013: 220).

على أنّ حكم الجزائر آل لـ أعراب أحمد(1572-1574م). غير أنّ المتتبع لتطور الحكم في الجزائر سيلاحظ ذلك التداخل في تسيير الحكم بين البايلرباي وقائد البحرية، نتيجة استقرار منصب قائد البحرية مقارنة بمنصب الباشا (مروش، 2009: 212).

ب-أسر الأديب الإسباني ميغيل دي سارفنتس1575م:

شارك الإسباني " ميغيل دي سيرفانتس" في معركة ليبانت البحرية؛ عندما كان في سنّ الرابعة والعشرين؛ إلى جانب الملك "دون خوان النمساوي" الأخ غير الشقيق للإمبراطور الإسباني فيلب الثاني، وكان النصر من نصيب التحالف المسيحي يومها. لقد استهلكت المعركة الأموال والرجال أيضا، ومن نجا

منها فقد كان منهكا بلا شك، و دي سارفانتس كان من بين هؤلاء إذْ نجده بعد أربع سنوات قد سئم من العمل البحري وقرّر العودة إلى بلده إسبانيا ولكنه لم يكن يعلم بأنّ حياته ستنقلب رأسا عن عقب، وبدل أنْ يصل إلى إسبانيا وجد نفسه في مدينة الجزائر؛ على متن سفينته إيل سول(El Sol)، التي كانت في طريقها من نابلوي إلى إسبانيا. عندما وقع في قبضة البحارة الجزائريين الذين كان يقودهم الأميرال مامي أرناؤوط.

كانت هذه السفينة من الأهمية بما كان، ليس لأنّ دي سارفنتس على متنها وإنّما لتلك الرسائل التي كان يحملها(Belhamissi . 1996 : 142) . للإمبراطور الإسباني فقد حصل على تزكية من الملك دون خوان ورسالة أخرى من الدون كارلوس الأركوني(Don Carlos d' Aragon) دوق سيزا (Siza) وهو بذلك سيكون صيدا ثمينا كما سيكون طلب افتدائه أمرا ملحا (المصمودي، 2019: 66).

جـ- تأمين سفن السفارات من المغارب إلى الباب العالي:

يروي لنا التمقروتي صاحب الرحلة المسماة "النفحة المسكية في السفارة التركية" بأنّه عندما غادر مدينة فاس في غضون شهر ماي من عام 1589م، ووصل مدينة تطوان، إذْ لم يكن بها ميناء كسائر المدن المغربية الأخرى، وإنّما كانت ثغرا ورباطا يُدافع من خلاله على أمن البلاد. وكان قد مكث فيها أي التمقروتي ثلاثة أشهر في انتظار مركب بحري جزائري تحت إمرة الريس مامي أرناؤوط خلال مهمة لنقل رُسل ومبعوثين للدولة العثمانية، وكان التمقروتي ممن يود السفر معهم، غير أنّه تخلف عن موعد إقلاع السفينة بليلة واحدة وكان الريس مامي قد برر سرعة إقلاعه لعدم توفر رصيف بالثغر يمنعه من سطوة السفن الفرنسية التي كانت بميناء سبتة ترقب تحركات الأساطيل الإسلامية لضربها (التمقروتي، 2009: 37- 38). ومن المؤكد أنّ شجاعة وإقدام الريس مامي كان تفوق التصورات؛ فنشاط الفرنسيين كان برعاية الإسبان زمن حكم فليب الثاني(1556- 1598م)، ملك اسبانيا، البرتغال، نابولي وصقلية، في إطار محاربة المسلمين. و بالأمس القريب كان العثمانيون قد حرروا تونس من الاحتلال الإسباني. غير أنّ الواقع يثبت عكس ما كان؛ ذلك أنّ الفرنسيين والإسبان طالما كانوا أعداءً، فـ"خير الدين" قبل نصف قرن كان يوفر الحماية لهم من اعتداءات شارلكان الإسباني. ولابد أنّ هذا التقارب كان ظرفيا؛ طالما كانت قوة العثمانيين تهيمن على البحر المتوسط من خلال الجزائر والإيّالات الأخرى.

د- من غزوات مامي أرناؤوط:

في مستهل العقد الأخير من القرن السادس عشر قاد مامي قطعا بحرية جزائرية قوامها عشرة مراكب مختلفة جاب بها سواحل شرقي البحر المتوسط، في حين كان نائبه مراد ريس يجوب هو الآخر سواحل غربي المتوسط وكثيرا ما عبر مضيق جبل طارق. فكانت سواحل إيطاليا هدفا لأسطول مامي وبحارته، ومن المدن التي تم الإغارة عليها كاغلياري والبندقية. ويذكر أنّه مابين سنتي 86- 1588م، غنم مامي غنائم وفيرة، تتمثل في الأموال والسلع. ولم تكن سفن دول شرقي المتوسط هي المستهدفة من ذي قبل فكذلك سفن إسبانيا كانت صيدا ثمينا له (مروش، 2009: 306).

فقد كان التوجه إلى تلك الجهات في إطار مساعدة الأندلسيين في ثورتهم التي قامت منذ سنة 1568م، وبقيت تداعياتها ردحا من الزمن، عندما أمدتهم الجزائر بالمتطوعين والذخائر الحربية وحتى

الأموال، ولم تكن هذه المساعدات لتنقطع لولا انشغال العلج علي وبحارته بتحرير تونس كما انشغلت الدولة العثمانية بفتح جزيرة قبرص (بن خروف، 2006: 108- 109).

ولم تكن السفن الفرنسية في منأى عن هجمات البحارة الجزائريين، فكثيرا ما وقعت منها سفنا في قبضتهم، لكن أصحاب هذه السفن سرعان ما كانوا يقدمون شكاوى لحكومة بلدهم التي تسارع بدورها للاحتجاج بواسطة قنصلها لدى حكومة الباب العالي (مروش، 2009: 306). وكثيرا ما تسببت هذه الاحتجاجات في عزل هؤلاء القادة عن مناصبهم. ولم تُذكر على الأقل في المؤلفات التي اطلعنا عليها، آثار خلفها مامي كما لم تذكر تاريخ وفاته.

3.3- خليل الأرناؤوطي:

1.3.3- نشأته وقدومه إلى طرابلس الغرب:

لم نعثر على تاريخ محدد لميلاد خليل الأرناؤوطي، ولا حتى معلومات تخص أصله ونسبه، ومن المفترض أنّه ولد في أواسط العقد السادس من القرن السابع عشر ، إذا سلمنا بتاريخ وفاته كما سيأتي في البحث على أنّه توفي في سنة 1733م ، عن عمر ناهز الثمانين حولا. كما أنّ اسمه الثاني يفيد حتما أنّه ألباني الأصل. ومما رُوي عنه أنّه عزيز النفس عالي الهمة اتصف بالشجاعة والإقدام (الزاوي، 1970: 213). قال عنه ابن غلبون:"..كان جبارا ذا قوة لم يؤثر عنه شرب مسكر منذ ولي، وفيا بالعهد، لم تثبت عنه فلتة بخيانة قط، قوي العزم محبا لأهل العلم.." (ابن غلبون، التذكار، 1920: 235).

حلّ خليل بطرابلس الغرب سنة 1114هـ؛ الموافق لـ 26افريل 1673م، وسكن قصر "البك رجب" الذي توفاه الأجل منذ سنوات، غير أنّ حلوله بطرابلس في هذا الوقت بالذات لم يكن ليروق الكثيرين ممن هم في سدة الحكم، لذا نجدهم سارعوا لفرض الإقامة الجبرية عليه في القصر المذكور دون ممارسة أي شكل من أشكال الحكم. وعلى ما يبدو فإنّ الداي "بالي باشا" هو من أوعز للجند بهذا التصرف خشية ضياع منصبه (فيرو، 1994، 180).

ويلاحظ هنا أيضا أنّ منصب الدايات هو الآخر لم يكن مستقرا بسبب خلاف الداي مع البايات الجدد وكان أي تغير في كلا المنصبين كان يُنذر بحدوث انفلات أمني، لذا رأى الداي أنّه من مصلحته إبعاد خليل عن الحكم ولو مؤقتا؛ لاسيما وأنّه لم تمض سنة واحدة على اعتلائه منصب الدايليكية، ريثما يتمكن من فرض سيطرته على مفاصل الحكم في البلاد.

وعبثا حاول خليل الظفر بمنصب الباي على الرغم من سداد رأيه، وخلال فترة إقامته المفروضة عليه لم يتم الالتفات إليه إلا مرتين من قبل الداي الجديد الحاكم يومئذ وهو الداي "إبراهيم التارزي"، الذي لم يحكم إلا مدة قصيرة لم تتعد بضعة أشهر هو كذلك. فالمرة الأولى أُختير خليل لترأس وفد كان سيرسل لملك فرنسا؛ هذا الوفد الذي حمل على عاتقه إدارة المفاوضات من أجل التوصل إلى صلح يرضي الطرفين ويقضي بإطلاق أسرى طرابلسيين كانوا محتجزين في مدينة طولون، بعد توتر العلاقات وتبادل الاتهامات بين الطرفين بخصوص عمليات القرصنة. وكان نجاح خليل أمر متوقف على حنكته الدبلوماسية، فالرجل يُشهد لكفاءته ونفاذ بصيرته، لذا فلا غرابة من توجس دايات الإيّالة منه خيفة (الأنصاري، المنهل، 1985: 180).

و هكذا نجح خليل باشا في مسعاه هذا، من خلال إغداق الهدايا القيمة على الفرنسيين والتي ساهمت في رأب الصدع بين الطرفين، وقد تمثلت الهدايا في نعامتين ومجموعة من الغزلان وأحصنة أصيلة، هذا وقد خصّ الملك نفسه بهدية ثمينة للغاية (فيرو، 1994: 180). ولعل وصول قنصل فرنسي جديد لتمثيل بلده في طرابلس الغرب، ساهم في بروز شخصية خليل يذكر أنّ مدينة طرابلس تعرضت لحملة فرنسية سنة 1692م، في محاولة للانتقام من بحارة طرابلس الذين قيل أنّهم أسروا سفنا فرنسية، وعلى أية حال فقد قُصفت المدينة واستمات أهلها في الدفاع عنها، وفي إطار عمليات الانتقام هذه استولى الفرنسيون على سفينتين لطرابلس الغرب كانت واحدة منها تقل خليل الارناؤوطي، الذي سيق أسيرا إلى فرنسا كان ذلك في غضون سنة 1692م، ولم يلبث به طويلا نظرا للجهود الذي بذلها الداي في فك أسره. (فيرو، 1994: 233)، وبداية تصدره لمشهد الحياة السياسية، فالتقارب الذي كان بين الرجلين مهد لأحداث جديدة في البلاد، فالقنصل كان له دور كبير في اختيار خليل لترأس الوفد برتبة "بك". إنّ هذا القنصل هو" كلود لومير"(Claude Lemaire). أمّا المرة الثانية فقد تم استدعاؤه للتوقيع على اتفاقية تم وضع بنودها من طرف وفدي طرابلس الغرب ودولة هولندا، في إطار الحرب البحرية، غير المعلنة بينهما، على أنّ هذه الدولة الأخيرة لم تكن معنية بحالات الحرب الطويلة عكس الدول الأوربية الأخرى، فكثيرا ما كانت غايتها لا تخرج عن النطاق التجاري؛ فيما يخص الحبوب وتزويد الإيّالة بالعتاد الحربي ومستلزمات السفن.

و تجدر الإشارة كما يقول مترجم الحوليات الليبية في أنّ الاعتماد على توقيع خليل كان حيلة للتنصل من قيود هذه الاتفاقية لأن الشخص الذي وقع عليها كان رهن الحبس، و هي بذلك غير ملزمة لهم البتة (فيرو، 1994: 233). كان تَغَيُر منصب الداي نعمة على خليل، فعندما أصبح "كردلي محمد الإمام" دايا في سنة 1687م-أو كما يسمى قازدغلي، وتم ذكره في العديد من الكتابات بالداي شائب العين، هذا الأخير تم تعيينه دايا على طرابلس في بداية شهر نوفمبر من سنة 1687م وبقي في منصبه حتى سنة 1701م، ليتم تعيين دايين آخرين على التوالي وهما عثمان القهواجي ومصطفى غاليبولي اللذين لم يصمدا في منصبهما إلا أشهرا قليلة، الأمر الذي استدعى بالسلطان العثماني إلى إعادة تنصيب الداي محمد الإمام إلى غاية 1706م. وهو الذي وصف بالورع وذلك أنّه اشتغل قبل هذا المنصب إماما لأحد المساجد في البلاد وكانت سمعته طيبة لدى ساكنة طرابلس الغرب؛ كما كان كذلك بالنسبة لقناصلة الدول الأوربية (فيرو، 1994: 221).

بالإضافة إلى إظهار خليل للباقة سياسية قل مثيلها محل إعجاب هذا الداي خاصة لما سمع بإحباط خليل لمؤامرة كانت ستعصف به كداي للإيالة. ذلك أنّ مكيدة قد دُبرت ضده من طرف مجموعة من الجند الذين أرادوا التحالف مع خليل، بيد أنّ هذا الأخير تظاهر بقبوله للفكرة، وفي الوقت نفسه عمل على إفسادها، ولما علم الداي بها قرب خليلا منه أكثر فأكثر ومنحه ثقة كاملة عندما زوجه ابنة له. كما مُنح لقب البك كما أسلفنا، وهو أدنى من الباشوية التي يمنحها السلطان نفسه أو الصدر الأعظم، كما ولاه قيادة الجيش البري (فيرو، 1994: 223).

2.3.3-المشاركة في الحملة ضد تونس1694م:

في ظل النزاع على عرش إيالة تونس بين الحكام المراديين ممثلين في الباي "محمد المرادي" و"محمد بن شكر"؛ المحسوب على العثمانيين، تدخلت إيالة الجزائر التي كانت تحت حكم الداي "شعبان" (1688-1694م) المتطلع إلى بسط سلطته على الإيّالات المغاربية الثلاث يومئذ؛ عندما استجاب الأخير للنداء الذي وجهه له محمد بن شكر، واستعد لنجدته ضد الباي المرادي، ولم يكن ابن شكر قد شكا حاله لداي الجزائر فقط بل نجده قد راسل الداي محمد الإمام لذات الغرض أيضا. وهكذا توفرت الظروف للتدخل في إيالة تونس (روسو، 1992: 141).

أعد الداي شعبان جيشه لحرب الباي المرادي وراسل داي طرابلس لإرسال جيشه، إذْ سارع الأخير لتلبية الطلب وجعل على رأس الجيش خليل الأرناؤوطي، ولما كان الوصول للجزائر يتطلب المرور على التراب التونسي فقد أوعز الداي محمد الإمام لخليل بتجنب ذلك وأمره بنقل الجيش عن طريق البحر، حيث نزل بميناء عنابة في غضون سنة 1694م (ابن أبي الضياف، 2004: 63).

لم تعترض البحرية التونسية سبيل الجيش الطرابلسي؛ الذي كان حتما سيمر قبالة سواحل البلاد . حيث هاجم عدة موانئ منها ميناء غار الملح، وغنم منه قطعا بحرية ذات أهمية، وهو الأمر الذي سيؤدي إلى اختلافه مع الداي شعبان عند تقسيم الغنائم.

وعلى أية حال سار جيش التحالف الجزائري الطرابلسي صوب تونس، ولما وصل مدينة الكاف اعترض محمد المرادي وجيشه طريقه، ودارت هناك رحى المعركة التي أسفرت عن انكسار الجيش التونسي من الوهلة الأولى، وقرر الباي العودة إلى عاصمته ليحتمي بأسوارها. بيد أنّ قوة الجيش الجزائري وحليفه لم تكن تلك الأسوار لتمنعها من الاستيلاء على المدينة وكانت الثلاث أشهر مدة الحصار المفروض عليها كفيلة بدخولها (مقديش، نزهة، 1992: 136). انتصر الداي شعبان وخليل في هذه الحرب، التي انتهت بتنصيب الباي محمد بن شكر بايا على إيالة تونس في السنة ذاتها، وغنم داي الجزائر غنائم كبيرة لم يؤثرها على نفسه إذْ أخذ أكثرها ولم يمنح الطرابلسيين إلا القليل منها، مما أدى إلى نشوب خلاف بين قائدي الجيشين (روسو، 1992:143). لقد كان لهذه الواقعة أثر سيئ في نفس خليل باشا؛ الذي سينتقم من الجزائريين في أول فرصة ستتاح له.

3.3.3- مشاركة خليل في الحملة ضد الجزائر1699م:

تقلد الباي مراد الثالث(1699-1702م) منصب باي تونس، و كان آخر باي في الأسرة المرادية، هذا وقد سار على نهج سلفه من حيث محاولات التخلص من دفع الأداءات المالية لصالح خزينة إيالة الجزائر، وكان طموحه أكبر من سابقيه، عندما جهز جيشا واتجه على رأسه للجزائر (روسو، 1992: 149)، وكان قد أغرى خليل الأرناؤوطي للمشاركة في هذه الحملة، وكان الأخير قد سار من طرابلس على رأس جيش قليل العدد إذْ لم يتعد 1500 فارس، ولم ترد الأخبار عن الطريق الذي سلكه للوصول إلى الجزائر، ومن المؤكد أنّها كانت عن طريق البر، فلا يوجد هناك أمر يخشاه ما دام هدفه الجزائر وليس تونس التي كان حاكمها حليفا له (وثائق3190: 2).

ويلاحظ هنا تغير موقف بايات تونس من خليل باشا الذي حالف الجزائريين قبل خمس سنوات ضدهم.

كان الجيش المرادي قد انتصر على جيش باي الشرق الجزائري "علي خوجة"، وفرض حصارا خانقا على مدينة قسنطينة، وفي خضم هذه الأحداث تدعمت صفوف التونسيين بالفرقة الطرابلسية واستعصت المدينة عليهم. و لم يكن ذلك ليروق الحليفين فالجيش الجزائري كان قد انطلق من مدينة الجزائر لنجدة المدينة. ولما كانت ثقة الحليفين في نفسيهما ومعنويات جنودهما مرتفعة – التي لم تكن كمعنويات باي الشرق وأهالي المدينة- فقد سارا للقائه غرب قسنطينة، حيث التحم الجيشان في السهول الواقعة بين قسنطينة وسطيف انجلت المعركة عن انكسار جيش التحالف، وفرّ الباي مراد الثالث وخليل؛ يجران أذيال الخيبة و الهزيمة (فيرو، 1994: 236). ولم يحقق خليل أية مآرب له، وهي إذ ذاك آماله قد تبخرت في الانتقام من الجيش الجزائري والظفر بغنائم وفيرة.

لما عاد خليل من حملته على الجزائر اتخذ من طرابلس مقرا له، ويُذكر أنّه جلب عائلته وصهره من الأناضول، ولم يكن لينعم بالاستقرار طويلا فسرعان ما تكدر ذلك الصفو بسبب اشتعال ثورة في منطقة غريان وما لبثت هذه الثورة حتى انتشرت كالنار في الهشيم ووصل لهيبها أنحاء الصحراء، وانظم إليها سكانها من القبائل، مما دفع بخليل إلى التحرك صوب الواحات حيث مركز الثورة واستطاع في ظرف وجيز إخمادها (الأنصاري، المنهل، 1985: 156).

ولا شك أنّ مكانته بين أفراد رعيته قد ساهمت في ذلك الانتصار الذي من شأنه بسط الأمن والاستقرار في ربوع البلاد (روسي، 1991: 314).

4.3.3-القضاء على ثورة الجند العثماني1701:

كانت ثورة واحة غريان بداية لتلك الثورات التي قامت في طرابلس الغرب، وبما أنّ الرعية كانت إلى صف قائد الجيش، فقد ظهرت ثورة أخرى لا تقل شأنًا تزعمها الجنود الانكشاريون، بقيادة جندي يدعى "عثمان القهواجي" ضد الداي محمد الإمام الذي كان قد بلغ من العمر عُتيا، هذا الأخير الذي استسلم للثوار دون قيد أو شرط؛ كما استسلم أمير بحريته. وما فتئ أنْ أصبح سيدا للبلاد بعد إعلانه خلع خليل الأرناؤوطي (فيرو، 1994: 237).

ولم يكن خليل من السهولة - كما تصورها عثمان- أنْ يُهزم فاستطاع استرجاع حكمه ونفى الجنود المتمردين إلى تونس وعلى رأسهم عثمان القهواجي الذي سيكون له عودة للبلاد فيما بعد.

5.3.3- مواجهة حملة الشريف التونسي1704- 1705م:

لمْ يهنأ خليل بالاستقرار بعد إخماد ثورة الجند قبل سنوات؛ ذلك أنّ الجنود في الداخل وضباط من الجيش الذين كان قد نفاهم إلى تونس عقدوا العزم على حرب خليل، والتخلص منه، إذْ اغتنموا سانحة تواجده خارج مدينة طرابلس في مهمة كان يقوم بها. وكانوا قبل ذلك قد أغروا باي تونس الذي جهز جيشا وعبر به الحدود الغربية للإيالة بلغ تعداده زهاء 18 ألف جندي. ولما وصلت أنباء اختراق الحدود لخليل قفل راجعا إلى عاصمته، وعمل على تدبير شؤون المقاومة والاستعداد لمواجهة الحملة التونسية. ولما وصلت الحملة مدينة طرابلس أوائل شهر نوفمبر من سنة 1704م، ضرب حولها حصارا

شديدا، دام قرابة 40 يوما، استمات أهلها في الذود عنها. وكانت آمالهم تتبخر يوما بعد يوم وكذلك هي معنوياتهم، إذْ استغل خليل ومن كان معه من الجنود وأهالي المدينة الفرصة ليوجهوا هجوما كاسحا على الجيش التونسي الذي تقهقر وانسحب دون تحقيق مسعاه في منتصف الشهر الأول من عام1705م. أما انتصار خليل فزاده حظوة بين أفراد رعيته، وارتقى في منصب أكبر من منصبه (ابن غلبون 1920، 157).

كما اتسمت علاقات الإيالة الخارجية مع سائر الدول الأوربية بالهدوء والاستقرار ولعل الفرنسيين استطاعوا بدهاء استغلال العلاقات الطيبة بين القنصل لومير و خليل باشا منذ زمن للظفر بامتيازات لم يكونوا ليحصلوا عليها لولا تلك العلاقات، وكانت ستبقى مجرد تطلعات مثل ما بقيت لدى جلّ الدول الأوربية الأخرى ، على الأقل في عهد هذا الداي(MASSON. 1903 : 334) . بعد وفاة الداي محمد الإمام سنة 1706م، بوباء الطاعون أصبح خليل هو سيد البلاد الوحيد (روسي، 1991: 320).

إذْ جمع بين منصبي قائد الجيش و منصب الداي، ونعمت البلاد في عهده باستقرار كبير حتى نوفمبر سنة 1709م، عندما أعلن الداي إبراهيم "الأركلي" خلع خليل الأرناؤوطي ونصب بدله قائدا للجيش. ومنها لم يذكر لخليل دور في إيالة طرابلس ابتداءً من هذا التاريخ و يكون بعدها قد غادر إلى مصر و من ثم إلى الباب العالي يَطلبُ مآرب أخرى (فيرو، 1994: 270). يذكر أنّه استطاع بعد فترة أنْ يحصل على منصب الصدر الأعظم للدولة العثمانية وكان ذلك بداية من شهر أوت 1716م، إلى غاية أكتوبر من السنة الموالية، كما يُذكر أنّه توفي سنة 1733م (المحامي، 1981: 315- 316). عن عمر ناهز الثمانين عاما. أما طرابلس الغرب فقد آل أمرها ليوسف باشا القرمانلي الذي أسس بها حكما وراثيا سيبقى لقرابة قرن وربع قرن من الزمن؛ بداية من سنة 1711م.

الخاتمة:

في ختام بحثنا تبين أن عنصر الأرناؤوط يعد من العناصر العثمانية الأولى التي وفدت إلى الإيّالات المغاربية خلال القرن السادس عشر، في إطار الخدمة العسكرية وهو بذلك من المؤسسين لهذه الإيّالات . كما أضفى عنصر الأرناؤوط حركية على الساحة السياسية والعسكرية في الإيّالات المغاربية سواء في تسيير دواليب الدولة من خلال المناصب السياسية التي أُنيطت بهم، أو في قيادة الأساطيل البحرية.

خلف الأرناؤوط بعدهم آثارا هامة؛ سواء في ممارسة نشاطهم إذْ كانوا قدوة لغيرهم وآثارا مادية تشهد على مرورهم من خلال هذا الحيز الجغرافي المغاربي، كقلعة سنان بتونس وقصر رياس البحر بالجزائر والمسجد والمدرسة التي شيدهما خليل باشا في طرابلس الغرب و كانت التجربة التي خاضها هؤلاء محل اهتمام السلاطين العثمانيين فالوزير سنان قاد الحملة على تونس وهو يشغل المنصب ذاته، كما قاد حملة لتحرير اليمن. أمّا خليل باشا فقد تقلد منصب الصدارة العظمى فيما بعد. وعليه تُعد الإيّالات المغاربية مدرسة لتخريج الرجال وصنع الكفاءات و صقل المهارات. و قدم الأرناؤوط خدمات جليلة للدولة العثمانية، ولم يدخروا جهدا في حماية مصالحها وحدودها ورفع راية الإسلام عاليا، في العديد من المواقف العصيبة التي مرت بها الدولة كموقعة ليبانت، أو في تلك الحروب الهامشية التي كانت تحدث من حين لآخر.

لم تكن الإيّالات المغاربية مجرد ولايات عثمانية تُمَوِنُ الدولة بمختلف المنتوجات أو مصدرا لجمع الأموال، من خلال الضرائب المفروضة، بل كانت فضاءً لبروز شخصيات لامعة شغلت مناصب مختلفة ورتب متعددة، وهي إذْ ذاك كَتَبَتْ أسماءها بماء الذهب في تاريخ الدولة العثمانية. على غرار عنصر الارناؤوط وهناك شخصيات وعناصر أخرى لا تقل أهمية ساهمت في بناء الايالات المغاربية و الدولة العثمانية. ولعل أهم شخصية ستظهر هي شخصية محمد علي باشا في مصر مع مطلع القرن التاسع عشر.

البيبليوغرافيا:

- باللغة العربية:

- الوثائق الأرشيفية:

1. وثيقة رقم3190، مجموعة وثائق، المكتبة الوطنية الجزائرية.

-المصادر:

1. ابن أبي الضياف أحمد، 2004، إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان. 2004. المجلد 2، الدار العربية للكتاب،تونس.
2. ابن غلبون أبوعبدالله بن خليل الطرابلسي. 1920، تاريخ طرابلس الغرب(التذكار). تحرير الطاهر الزاوي، المطبعة السلفية، القاهرة.
3. الأنصاري حمد بك النائب ، 1985، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب. المجلد 2، مكتبة الفرجاني، طرابلس.
4. التمقروتي محمد بن علي ، 2009، النفحة المسكية في السفارة التركية. تحرير محمد الصالحي، المؤسسة العربية للدراسات و النشر، بيروت.
5. خوجة حسين، 2014، بشائر أهل الإيمان بفتوحات آل عثمان. ج1. تحرير زيد محمد أسامة، دار الفوائد،القاهرة .
6. دوهايدو دييقو فراي ، 2013، تاريخ ملوك الجزائر. ترجمة عبدالعزيز أبو لؤي، دار الهدى،عين مليلة، الجزائر .
7. القيرواني محمد بن ابي القاسم ، 1286ه، المؤنس في أخبار افريقية وتونس. مج 1، مطبعة الدولة التونسية، تونس .
8. مقديش محمود بن عمر، 1992، نزهة الأنظار في عجائب التواريخ و الأخبار، بيروت،.

الدراسات :

1. الأرناؤوطي محمد ، 2018، فصول من تاريخ الألبان في مصر (ق15-18م)، دار الشروق، القاهرة .
2. ايرينا بيتروسيان ، 2006، الانكشاريون في الإمبراطورية العثمانية، مركز جمعة الماجد للثقافة و التراث، دبي .
3. بروديل فرناند ، 1993، المتوسط والعالم المتوسطي في عهد فليب الثاني. ترجمة مروان ابو سمرا. المجلد 1، دار المنتخب العربي.
4. بن خروف عمار ، 2006، العلاقات بين الجزائر و المغرب خلال القرن10ه/16م. الجزائر،دار الأمل لطباعة و النشر و التوزيع، بيروت.
5. بوعزيز يحي، 2009، الموجز في تاريخ الجزائر، دار عالم المعرفة للنشر و التوزيع، الجزائر .
6. التر عزيز سامح ، 1989، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية. ترجمة محمود علي عامر. المجلد 1، دار النهضة العربية، بيروت .
7. التميمي عبد الجليل، 1999، "رؤية منهجية لدراسة العلاقات العثمانية المغربية خلال القرن16، المجلة التاريخية المغاربية، 1983، الإصدار 29-30، تونس .
8. جبري عمر ، 2019، "العقيدة العسكرية للجيش العثماني في الجزائر من خلال نظام الدفشرمة نموذجا(1518-1830م). مدارات تاريخية، مج1 ع3، الجزائر.
9. الجبوري حمد رابحة ،2011، القائد العثماني سنان باشا وجهوده في استعادة اليمن وتونس1568-1574م. مجلة جامعة تكريت للعلوم، العراق .
10. حليم بك إبراهيم، 1988، تاريخ الدولة العثمانية العلية(التحف الحليمية). مج 1،مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت .

11. حماش خليفة ، 2003، تجنيد المتطوعين للجيش الجزائري في أقاليم الدولة العثمانية في أواخر العهد العثماني. مجلة الآداب والعلوم الانسانية، ، مج2،ع، جامعة قسنطينة، الجزائر.
12. روسو الفونس ، 1992، الحوليات التونسية من الفتح العربي حتى احتلال فرنسا للجزائر. تحرير محمد عبدالكريم الوافي، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي .
13. روسي ايتوري ، 1991، ليبيا منذ الفتح العربي حتى سنة 1911م. ترجمة خليفة التليسي. مج 2، الدرا العربية للكتاب،الإسكندرية .
14. الزاوي الطاهر، 1970، ولاة طرابلس من الفتح العربي إلى نهاية العهد التركي. مج 1، دار الفتح للطباعة و النشر،بنغازي 1970.
15. زيد محمد أسامة ، 2012، منهل الضمآن في إنصاف دولة أل عثمان. المجلد 1. دار الفوائد، القاهرة .
16. سي يوسف محمد، 2009، أمير أمراء الجزائر العلج علي باشا، دار الأمل للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر.
17. عمريوي فهيمة ، 2009، الجيش الانكشاري بمدبنة الجزائر خلال القرن12هـ/ 18م(دراسة اقتصادية اجتماعية من خلال سجلات المحاكم الشرعية)، رسالة ماجستير غير منشورة، الجزائر: جامعة الجزائر.
18. فيرو شارل، 1994، الحوليات اليبية من الفتح العربي حتى الغزو الايطالي. ترجمة محمد عبد الكريم الوافي، مج 3. منشورات جامعة قار يونس، بنغازي .
19. قاسم أحمد، 2004، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عضوم(1574-1600). تحرير عبد الجليل التميمي. مؤسسة عبد الجليل التميمي للبحث العلمي و المعلومات،تونس .
20. مانتران روبرت، 1993، تاريخ الدولة العثمانية. ترجمة بشير السباعي،دار الفكر للدراسات و النشر و التوزيع، الإسكندرية .
21. المحامي فريد بك، 1981، تاريخ الدولة العلية- العثمانية، تحقيق احسان حقي. مج 1، دار النفائس،بيروت .
22. مروش لمنور ، 2009، أبحاث ودراسات في تاريخ الجزائر خلال العهد العثماني(القرصنة بين الأساطير و الواقع)، دار القصبة للنشر والتوزيع، الجزائر .
23. المصمودي وفاء ، 2019، ميكيل دي سارفانتس و الصراع الاسلامي المسيحي بالبحر الأبيض المتوسط، مجلة مدارات تاريخية،الجزائر .
24. وولف جون باتيست ،2009، الجزائر وأوربا. ترجمة أبو القاسم سعدالله، دار الرائد، الجزائر.

-المراجع باللغة الفرنسية:

1. Belhamissi, , (1996). Moulay. *Marine et Marins D'Alger1518-1830*. Alger: P. A. N.
2. Masson, P. *(*1903*). Histoire des établissements et du commerce Français*, dans l'Afrique Barbaresque, 1560-1793 Algérie, Tunisie, Tripolitaine, Maroc. Paris: librairie Hachette, 1903.